من إصدارات (المدى)

قراءة في (يوميات نهاية الكابوس) للشاعر فوزي كريم

متى يصل مغني القيثارة إلى مسرحه ؟

كاظم محمد

كعادته ، في كتابات سابقة ، يصر الشاعر فوزي كريم ، على مد جسوره الحية ، إلى أرضه الأولى.. إلى عراقٍ ، بقي هو الآخر حيًا في ذاكرته ، وضميره . لم يستطع ، خلال عقدين ونصف ، أن يتجاوزه إلى (الزمان الإنكليزي) أو (الحياة الإنكليزية) ، حيث يعيش، الآن، هناك ،(لقد أودعت الزمان والحياة بين دفتي دجلة والفرات) . أودعها في رائحة الأسماك ، والغوايات ، والوساوس التي تحيط برؤوس أصدقائه ، كهالة في زمن الفجيعة ذاك .

وهذه المرة ، يعود إلينا بكتاب جديد ،استمد عنوانه ومضامين فصوله ، من كابوس مقيت ، خضّب حياتنا ، لأكثر من ثلاثة عقود ، بالدم والإذلال . فسماه (يوميات نهاية الكابوس) .. .

(يوميات تتأمل داخل المساحة الزمنية المتبقية للدكتاتور) . ولكن الشاعر لا يستطيع إلا أن يعود ، بقلبٍ ممرور ، إلى المساحات الأكثر عمقا في حياتنا . حيث أهواء المثقفين اللاعقلانية،

وثقافة الإعلام البعثي ، والعربي، ورايات العقائد العمياء ، هي المقدمات التي أنتجت ، وسببت لنا ، كعراقيين ، كل هذا العذاب ، والألم ، والخراب ، ولوعة المنافي .

فأهواء المثقف ، وحلوله المعتمدة على الكلمة الوافدة على الورق ، تحولت إلى يوتوبيا مثقلة بوهم التطبيق على الأرض . وأتسع هذا الوهم في أذهان الناس ، وقاد ، فيما بعد ، إلى صعود دكتاتور، لم يعرف التاريخ مثيلا لدمويته .

ويعود الشاعر، إلى تجربة الستينيات في العراق، يوم هيمنت العقائد ، ومفاهيم الأحزاب ،على الثقافة ،وأذهان المثقفين . وتحدد موقف المثقف بدرجة انتمائه ، لتلك العقيدة ، أو ذاك الحزب. وارتدى معظم المثقفين (عدسة بلون واحد) لا ترى إلا مفهوما يقينيا مطلقا ، تحولت، في ظله ، الأفكار ، والكلمات ، والكتابات ، إلى (سكاكين) و(مشانق)، ودكتاتور (من بين أصابعه ، تفجر نهر الدماء) . وبأصابعه ، أيضا ، تهدمت المؤسسة ، والدولة ، والإنسان .

ولو تأمل هذا المثقف إنتاجه ، خلال العقود الأخيرة ، وكاشف نفسه بما حصل ، لوجد خيطا من مشنقة ، أو شفرة سكين ، أو إصبعاً على زناد . عندها سيعرف ، بأنه لم يكن بعيدا عن ارتكاب الجريمة . هناك أجيال من مثقفي (الماكنة الرسمية) تولدت من ردود الأفعال ، أجيال بلا ارض مستقرة ، بلا نمو طبيعي داخل حضن موروثها ، وليس لها حوار مع الموروث العالمي. وبسبب مناخها المتهاوي ، ظلت أفكارها مجرد بالونات هواء ، تتضخم خارج الحياة . وتتفجر مفاهيم مجردة عن (الثورة)،و(التمرد) ،و (التغيير) ، و(الجنون) . في وقت ، لا يكف مفجروها عن السعي ، في أرض الواقع ، لأن يكونوا الأبناء المدللين للسلطة . وهم لا أكثر من صانعي كتب ، لا تمت بصلة إلى تأسيس ثقافة مجتمع وحياة . وظلت تلك المفاهيم تغلي في رؤوسهم- بالوناتهم ، لينحسر، ويدمر مفهوم القانون ، والدولة ، والتطور الطبيعي . وتحولت نظرية القداسة للمفهوم العقائدي ، ورموز القوة النظرية ، إلى (حيوان كاسر) انقض على تجربة الإنسان العراقي ، وتاريخه . لقد نسي هؤلاء المثقفون ، أن حرية الكاتب ، والمثقف ، لا تتحقق خارج ضوابط ، وشروط ، وقوانين المعرفة ، وان الحرية الحقيقية (تزهر من كتاب القانون) ، وفي حضرة القانون . وهي بدون ذلك ، مجرد قناع لفظي للفوضى ، (تسمن وتبتغل) في غياب القانون .

فمنذ عقود تمتد طويلا في طيات التاريخ ، ونحن يتامى غياب المؤسسة ، لم نتعرف على أدوارنا، كبشر لهم حقوق ، وعليهم واجبات محددة بدستور .

نتحدث عن الحرية ، دون الإحساس بها ،نتجادل حول مفهوم الدولة ، دون أن نتعامل مع مؤسسة دولة . والمشهد الذي تكرر أمامنا ، ولأجيال عديدة ، هو (انقلابي حاكم ، ومرتزقة يرتقون جثث الدستور) . مرتزقة يصنعون مخاضة الدماء ، ويحلقون فوقها كالغربان .

ولكن الشاعر لا ينسى ، في خضم تلك المساحة السوداء ، من كانت حياتهم ، وكتاباتهم ، إضاءة وومضة حب إنسانية في معترك الوهم . ومنهم الشاعر حسين مردان ، حيث وجد في شعره خشونة تعكس معنى الحياة ، وفي روحه ثراء العاشق الإنساني الكبير. كان طائر الحرية الجالس (على قمة أفرست ، يعلك الصبار) . والقاص محمد خضير ، والشاعر محمود البريكان اللذان لم ينشغلا ، في حياتهما ، وكتاباتهما بالأفكار اليقينية ، ومنظور اللون الواحد .

ومن هناك ، ينطلق إلى المساحة الأكثر عمقا لما هو إيجابي في نتاج الشاعر، حيث (خشونة الحروف) ، واللفظة الصادمة للذائقة العادية ، في قصيدة لأبي العلاء ، تأخذانا إلى عمق المعنى والجمال الداخلي الكامن في باطنه . وتغوي الذاكرة الشاعر بالعودة إلى الجذر ، إلى (صلة الرحم) بشعر الشرق . ذلك الشعر، الذي له نكهة ، تتطلبها أرواحنا المرتبطة بتاريخ ووجدان شعوبنا . فالشعر ، بخلاف العلم والفكر ، لا يمكنه أن يبتعد عن جذوره . وهذا ما هو مفتقد في شعرنا العربي ، الذي اعتمد ثقافة الغرب أفقا له . فكان الاغتراب كبيرا في كياننا الشعري . كما أن الشاعر العربي ، بقي مصرا على عدم الاعتراف بفقر لسان شعره ، في إضاءة معاني حضارة الغرب ، كما فعل ، يوما ، الشاعر والفيلسوف الروماني لوكريتيوس ، حين كشف فقر لسان الشعر الروماني ، بالنسبة لمعاني الحضارة اليونانية ، فكان لقصائده معنى ، ومستقبل في الثقافة الرومانية . إن تسامي الشاعر العربي فوق قصوره ، وإيهام نفسه بالتفوق ، جعله بعيدا عن كل ما يثير العقل .

ولم يكن الحال أفضل ، بالنسبة لنقادنا ، الذين اعتمدوا النظريات النقدية الغربية، وحولوها إلى (بالونات) ، يتعاملون من خلالها مع النصوص التي يراد نقدها . مما عرض العلاقة بين الاثنين إلى الارتباك . إن النظريات النقدية الحديثة ، كالبنيوية والتفكيكية ، هي نتاج واقع فاض فيه الإنسان والحياة بهيمنة العقل ، وفاضت فيه اللغة بقوى المعرفة والاتصال . أما نحن، فأحوج ما نكون إلى لغة تطور (قاموسنا الصامت) منذ مئات السنين .

أما لغة حداثتنا ، فهي ثمرة الهجنة بين حياتين متباينتين ، وغير متكافئتين . هجنة احتفينا بها ، وتبنيناها ، منذ رأينا في الجملة المترجمة ، أفقا جديدا ، وهواء حرية . وهذا يشبه حال من يتنفس برئة غير رئته . كذا هو شاعر المنفى ، حيث تختل علاقته مع الأشياء التي حوله ، حين يقف وحيدا مع حقيبته ، وقصيدته ، في انتظار لا يحمل معنى العودة إلى أرضه . إن انقطاعه عن جذور تربته ، يورثه إحساسا بالفقدان ، والمرارة . وتظل قصيدته بلا قارئ حاضر ، وبلا وطن . وهو ليس أكثر من (شاعر يحمل قيثارة.. في جزيرة مهجورة) . وهنا ، يتذكر الشاعر رائحة الأمل ، وهي تشد مشاعر المنفيين العراقيين للعودة من الشتات . وكيف كانت هذه الرائحة تصطدم بخلافات السياسيين العقائديين، وأفكارهم ، التي كانت تخرج من الرؤوس ، ولا تمس حاجات الروح والجسد . ويريد هؤلاء المنفيون من السياسي ، أن يتعامل مع الوطن والناس ، مثلما يتعامل مع مصير عائلته وأبنائه ، ومثلما يريده لهما . يريدون (أفقا خاليا من النظريات والأناشيد) التي دفعوا ثمنها عمرا ، وحياة مريرة على أرصفة المنافي البعيدة .

ويبقى حلمهم ، كما هو حلم الشاعر ، وحلمنا جميعا ، كعراقيين ، أن نخرج من قبضة الكابوس الثقيل ، ونتجول في (محلاتنا) و (درابيننا) دون أن يسألنا أحد عن هويتنا العقائدية ، والقومية، والعشائرية ، وحتى الوطنية..التي تحولت في ظل ذلك الكابوس إلى (زبدة سوداء سامة) فقدت صفاتها الأولى ، على يد أجيال سلبتها من القاموس ، وحولتها إلى دهان يفسد (رائحة الجدائل) . ويبقى اليوم الموعود ، بعد كل ذلك العذاب الجهنمي ، الذي أحاطتنا به مراجل الدكتاتورية ، لأكثر من ثلاثة عقود ، هو أن يكون لنا وطن عارٍ (نتبادل وإياه الشتائم دون مخاوف) من أحد يحاول ، من جديد ، تصنيع أشكالٍ أخرى من التسلط ، والأوهام .

إن مشاعر الأمل لدى العراقي ، الذي مازال (يصغي لنزيفه) معقودة بزوال الطاغية ، ومشاعر يأسه مرتبطة ببقائه . ولا توجد في كيانه فسحة للاهتمام بصراع القوى العالمية ، أو صراع الطبقات . ولأنه ينزف منذ أكثر من ثلاثين عاما ، فهو لا يفكر إلا بإيقاف نزيفه . ذلك النزيف الذي لم تهتم به ، يوما ، قوى تقدمية ، أو إسلامية ، أو عربية . وأن ذاكرته ، هي (ذاكرة الذبيح) التي يعرف ، من خلالها ، الوجوه التي ساهمت بذبحه . وعليه أن يعرف ، من تجربته الدامية ، والأضرار التي سببتها لحياته ، بأن الحياة البشرية تحكمها ، اليوم ، سوق مصالح وتبادل سلع ، فلم لا يدخل (مرحلة اللاعداوة واللاصداقة) ويتعامل مع الآخر على وفق هذا المبدأ ، وبذكاء العارف . فمنذ ارتقى صدام قمة السلطة ، ظل العراقي يشعر بأن غزوا أجنبيا بالغ الشراسة والقسوة حل في مدنه، وأن من كانوا في السلطة هم قطاع طرق ومحتلون ، وأكثر وحشية من الأجنبي العسكري . وحين تكون لهذا الأجنبي، قوة تزعزع تماسك الجلاد والقتلة ، وتساهم بصنع واقع جديد ، لا يتسع ، كما كان سابقا ، لآلاف المقالات ، والقصائد ، والكتب ، التي تقول لك يوميا (انظر إلى السمكة وقل يعسوبة ، أو إلى برزان وقل قمر الزمان) ، يكون للأمر معنى آخر ، يفهمه العراقي وحده .

ويظل حلم العراقي المنفي ، بعد أن رأى مفاتن الحرية ، وجلال القانون ، وقداسة الإنسان هناك ، أن تصبح الدولة في بلاده مؤسسة ، ومختبر كفاءات اختصاص ، لا كفاءات (مناورة واحتيال). وحيث يتحقق ذلك ، فان الشاعر سيصفق لوزير ثقافة يحسن الحديث ، ووزير تربية يحتفل بصدور كتابه الحادي والعشرين . وأن يعود رجل الدين إلى حوزته ، مرجعا فقهيا ، وذو العقال إلى ركن مضيفه . يومها ستعود المدينة مدينة ، والريف ريفا ، والوطن للجميع .

ويتوسل الشاعر ، بذوي الوعي الثقافي المسيس ، أو السياسي الثقافي ، أن يتركوا للعراقيين ، الذين خبروا التعامل الإلزامي مع (حماة الوطنية والقومية والأممية) ، أن يجربوا التعامل مع أطماع العالم الخارجي (لعل هذه الأطماع تكتفي بنصف خيراتنا ، وتترك لنا الإنسان حيا ، لا جثة على مذبح مفاهيمها وشعاراتها الخالدة) . وعلى القوى التي ستتسلم عراق المستقبل ، أن تتعلم من ذلك الإرث الدموي الكثير مما عليها أن تعمله للإنسان العراقي ولمستقبله ، دون وصاية من عقيدة ، أو شعار جربنا ما أصاب حياتنا من شحوب في ظلهما . وعلى هذه القوى أن تعرف ، بأن الخطر ، كل الخطر، يكمن في الطمع باحتلال المواقع الجديدة في السلطة . لأن ذلك يؤدي إلى إرادة قوة ، وإرادة مال ، ستغذيان فعل (الغرائز المتدنية) الطامعة بالتسلط على الآخر ، وإحالته إلى أداة ، وخادم .

وهاهو الدكتاتور يسقط . ويدخل العراق طريقا جديدا ، لم يألفه من قبل ، طريق الحرية . والحرية هذه المرة ، فعل وليست كلمة أو فكرة . وعلينا أن نتعامل ، اليوم ، مع حريتنا ، بطريقة تقود الإنسان العراقي المتعب ، المضطرب ، إلى ما ينفعه ، ويكون فيه سعيدا معافى .

وعلينا ، بعد هذه التجربة الجديدة ، أن لا نبقى داخل (معتقل الأيمان الإيهامي) في التعامل مع القوى الموجودة على أرضنا ، بل من خلال مصلحة ومنفعة العراقيين قبل كل شئ ، وإعادة الاعتبار للإنسان والحياة في بلادنا . وهذا جزء من عمل المثقف ، الذي عليه أن يتأمل ، من جديد، بمعنى الثقافة ومغزاها وهدفها . كما علينا أن نبتعد عن (المعجزة العربية) التي ظلت كامنة في لغة التأليب ، والحماسة ، وتوهم القوة والجبروت ، واحتقار قوة وحضارة الآخر ، بعد أن فُقد الأمل بأي معجزة سماوية أو أرضية .

لقد صارت هذه اللغة مرآة للكيان العربي (من المحيط الهادر لغويا ، إلى الخليج الثائر لغويا) ، حاصدا بها كل أنواع الموت ، والقتل ، والخراب . وبإنزال هذه اللغة من علياء وهمها ، سيكون للإنسان الأضعف ، وللطائفة أو القومية الأصغر ، حق المساهمة في بناء الحياة . وسنعيش السعادة ، والحب ، والتآخي بدل أن نقرأها مجرد كلمات في القصائد ، والكتب . وأن من يريدون إدامة الهواء الفاسد في حياتنا الجديدة ، ليشبعوا بطونهم ، وخزائنهم على حساب معاناة ، وجروح الإنسان العراقي ، لن يطول الوقت بهم (لأن المغني المقبل بقيثاره ، سيحتاجهم ديكورا لمشاهد المقابر الجماعية على مسرحه التراجيدي) . فمتى يصل هذا المغني إلى مسرحه ، الذي هو مسرح حياتنا الجديد ؟ ومتى يصبح مثل هؤلاء ، من ذوي الخزائن الفاسدة ، صفحات منسية في كتاب ؟

•الكتاب : يوميات نهاية الكابوس
•المؤلف : فوزي كريم
•الناشر : المدى ٢٠٠٥

أسرار الحكاية الجديدة

قراءة في أفكار القاص العراقي محمد خضير

(الحكاية الجديدة في سبع ليال بورخسية)

وديم شامخ

الحلقة الأولى

بسبع محاضرات (سبع ليال) ومدخل وخاتمة تنكرية أقام المبدع محمد خضير ظهيرا نظريا لحقل اشتغاله في فن القصة القصيرة ...ويعد محمد خضير من المبدعين القلائل الذين اخلصوا للحكاية ورعوا أدوار استحالتها بعين العطار وصبر الحريف (سليل الصناع الذين يؤثرون العمل اليدوي على الماكنة السريعة .... صفاته ، التأمل ، البطيء، الإخلاص ، الكفاف، زاده الخيال، مادته القطعة الصغيرة المتقنة).

فمنذ قصة (النيسابي) التي نشرها في مجلة (الأدب العراقي) قبل اكثر من ثلاثين عاما ، وبعدها البطات البحرية عام ١٩٦٦، وقصة الأرجوحة في الآداب البيروتية ، تلك القصة التي لفتت انتباه القراء العرب ، واشار الى أهميتها سهيل إدريس ، وبعدها (تقاسيم على وتر الربابة) التي نوه بأهميتها غسان كنفاني ، وبهذا النحت البطيء في صخرة الإبداع والتأمل في التجربة واحتواء مؤثراتها العامة وهضمها ، قدم الكاتب تمثلات إبداعية لتجربته عبر إصداره مجموعته الأولى (المملكة السوداء) عام ١٩٧٢ وبعدها أنجز مجموعته الثانية(في درجة ٤٥مئوي) عام ١٩٧٨ ، ثم لاذ بصمت البحث والتقصي ليخرج بكتاب مهم (بصرياثا –صور مدينة)عام ١٩٩٣، ثم سار بعالمه الإبداعي الى تخوم قصية خارجا من عباءة تجاربه السابقة فاصدر مجموعته (رؤيا خريف).

ان هذا الفارق الزمني والمحطات التي ذكرناها في مسيرة محمد خضير قد لا تشكل مؤشرا لتطور نوعي عند البعض ، ، فمنهم من قال كلمته ومضى ، ومنهم من سقط في فخ التكرار والاجترار ، واخرون أغوتهم الأضواء وهالاتها الكاذبة . لكن محمد خضير ومع قلة من المبدعين مضى الى الهدف يحسب خسارات الوصول الى منبع الرؤى .

ونحن هنا نناقش أفكار الكاتب النقدية التي لخصها في كتابه النقدي (الحكاية الجديدة) الذي يسلط الضوء على تجربته الإبداعية ويدون رؤاه وينتهك الأقنعة إذ يقول (وما من كاتب تشغله قضايا المجهولية الكبرى للفن إلا ويقدم على تدوين رؤياه في الوقت المناسب قبل ان ينتهك الآخرون قناع تبدلاته ومجهوليته)، هنا يعلن القاص عن فطنة كاملة إزاء اليقين ، فلا بد من إزالة الأقنعة بعد انتهاء الكتابة بوصفها (حفلة تنكرية) ، وما الأقنعة إلا تلك الحاضنات الفكرية والمرجعيات الجمالية التي تثري مادة الكتابة الإبداعية .

يشبه محمد خضير ذاكرة الكاتب بدكان العطار(فلا اكبر من دكان العطار ، هي ذاكرة القصاص وقد اختلطت فيها روائح الأعشاب والبذور والزيوت، تلك هي ضمانة القصاص المكتفي بنفسه ، والامين لأسلوبه ، عيناه على الماضي الأثير ، ويده تمتد الى تلك العلب العديدة ، يميز روائحها الأليفة ويلتقط العلبة المطلوبة) إذن هو القصاص القنوع ليس بالرضا بضاعة الصمت والسكون ، بل بالاغتراف من الكنز الذي لا يفنى .

هنا يضع الكاتب قيما أخلاقية (المكتفي –الزاهد-، الأمين) وهي صفات لن تصمد أمام القراءة المتأنية لفكر محمد خضير وابداعة كما سنرى فيما بعد وكأنه يسعى الى ترحيل قيم من حقل أخلاقي ! الى حقل الكتابة (حفلة التنكر والأقنعة) ، وكما يقول بيكاسو (ان المبدع هو سارق كبير وخطير) .

كتاب الحكاية الجديدة ، هو كتاب نظري اشتمل على سبع محاضرات كان الكاتب قد ألقاها على جمهور من الطلبة والأدباء وفي أروقة الجامعات ، واتحاد الأدباء (في البصرة وبغداد والعمارة) . أعاد الكاتب أعدادها على شكل كتاب بسبع محاضرات ، بعد ان أجرى عليها تعديلات وضمنها هوامش جديدة إذ يقول (لم يسلب الأعداد الثاني للمحاضرات شيئا من طبيعتها التأملية) ، كما تضمن الكتاب مقدمة وختم بمقابلة مع محمد خضير أجراها الراحل رياض إبراهيم.

وبما ان كتاب (الحكاية الجديدة) قد جاء في صيغته الشكلية مطابقا لكتاب بورخس (سبع ليال) وكذلك وجود اكثر من قاسم مشترك على مستوى المرجعية الفكرية بين المبدعين –لا سيما وان محمد خضير قد تعرض الى مثل هذه المقابلات في أعماله القصصية إذ وصفت أعماله بتأثرها بشيئية (ألن غروب غرييه) ، والواقعية السحرية عند ماركيز، وآخرها البورخسية . وكأن محمد خضير الهادر الأزلي لدم الرؤيا !

فلا بد لنا من ان نتفحص كتاب بورخس (سبع ليال) لنضيء المشترك بين فكر الكاتبين شكلا ومضمونا .

كتاب بورخس هو سلسلة من المحاضرات أيضا. ألقيت في عدد من الجامعات ثم طبعت بشكل مختزل في الملاحق الأدبية لصحيفة (بوينس ايرس) ، وبعد مضي سنوات أجرى بورخس تعديلات واسعة على المحاضرات التي خرجت بشكل كتاب .

يقول مقدم بورخس في مقدمته (ان تأملات بورخس الأدبية لا يوجد فيها شيء منهجي ، لان النقد عند بورخس فرع من الأدب التخيلي ...الأدب يولد الخشية في احسن حالاته أو الفزع المقدس) ويشير محمد خضير في مقدمته (ومازالت هذه المقالات تحتفظ بذلك الطابع التجريبي المنفرد ، فلم تدخل في حساب النقد الأدبي ومنهجيته ، ولا في مداخل النظرية الأدبية ومصادرها ....إلا بما سمح المدخل المشترك بين التجربة الخاصة والمبدأ العام فليتقبلها القارئ على أنها سيرة نظرية) . ويمضي محمد خضير في توصيف كتابه (واني بدلا من حصر انفعالات الخلق في مجاريها المتشعبة تركتها تنساب في مجرى مجاور لنهر النص الأدبي وقد جاءت الهوامش والروابط لتمنحها قوام المقالة ، بعد ان استدعى التأمل ان يسلك طريق المحاججة والإقناع ، لا طريق التشتت والتخبط) . يؤكد المستررید مقدم بورخس على ان محاضرات بورخس شفهية يقصها الأعمى ، حتى أنها تحولت الى سلسلة من التبصرات المنفصلة لا يربطها سوى ذلك الخيط الغرائبي الذي يضفيه عليها انتباه الكاتب نفسه (ان سحر بورخس المروي يختلف عن بورخس المكتوب ...حيث يكون بورخس الراوي اكثر خداعا وتلونا ، ففي الوقت الذي تظهر فيه كتاباته كلعبة فان أحاديثه تصبح ذاتها لعبا وشرطا ..للمفارقات) .ويذهب بورخس في محاضرته عن العمى بالقول(ان الناس يميلون الى تفضيل الشخصي على العام ، المحسوس على المجرد) ويعلق المستر ريد (بورخس الأعمى وهو يلقي محاضرة عن العمى قد أضفى بعدا اكثر درامية على لغة المحاضرة).

في مدخل الحكاية الجديدة يذكر محمد خضير (أتذكر أول جلوس لي على المنصة لالقاء محاضرة (ذاكرة العطار) في اتحاد بغداد عام ١٩٨٧ وما استمتعت به من طلاقة سرد وقائع لم أسجلها في مدونة المحاضرة تتعارض تماما والمواجهة الأولى مع الجمهور لم أتعرفه ولم يتعرفني . فقد كنت أحس لغياب شخصيتي –مؤلفا بعيدا- تأثيرا يفوق تأثيرها –حاكيا- قريبا. وقد جاءت النتائج لتخذل تصوري المعتاد ، وتلغي واحدة من عاداتي التي درجت عليها زمنا ودافعت عنها . لكنها ويا للروعة كانت نتيجة مذهلة ، فقد استدار أفقي نحو احتمال اكثر تطابقا مع نظرتي الأولى ! ان حياة المؤلف في الحضور والمواجهة تعادل غيابه في حياة النص الذي يظهره).

وعندما ينهي المستر ريد مقدمته، يواصل محمد خضير كشوفاته النظرية ويبدل عاداته إذ يقول(ما دام المؤلف بهذه القدرة على الاستبدال ، فانه لا ينكر حق المؤلفين الآخرين في ان يستأثروا بمدار لهم ، او ان يخرجوا الى مدار مشترك ، في حركة من الاقتراب والابتعاد ، التأثير والتأثر ، تمثل هارمونية التأليف الخلاق لرموز الطبيعة والكون والحياة ، التاريخ والأبدية .)

يعرف الكاتب ان التجربة عندما تصل الى (النيرفانا) تبدأ بابتكار مواقدها الخاصة ، فهو الآن النافخ في جمرة تجربته ككينونة انفصلت عن طبيعة النار والخشب . ترى لماذا عمد محمد خضير الى إلغاء بورخس من أية إشارة في مدخل حكايته الجديدة؟

اعتقد ان محمد قد افترض نظريا بان بورخس يمثل ذات الواحد الفيثاغورسي ، وانه إذ يقترب منه او من غيره فانه يمارس لعبة محو الصفة الواحدة وانحيازها لوصاف واحد ، واقترانها منطقيا في المدار الكلي لتلاقح العقول المتكافئة .

وأذ يعلن خضير (ان أمر استباحة رؤيا الآخرين مبالغ فيه ولا بد من النظر الى الأفلاك الميتافيزيقية المشتركة لمجموعة من المؤلفين بعين عاشقة) ويرى بورخس (ان القصة التي يؤلفها مؤلف معين قد تكون حتما حلما عند مؤلف آخر) .والحكاية الجديدة كما الليالي السبع تنتهي من مقدمتها لتذهب الى البحث عن أسرار فن القصة القصيرة كما يراها محمد خضير.

(بورخس راويا)

العميان الرؤيويون قد اكتشفوا في اللون الواحد (العدد الواحد) قدرة على تناسخهم النوعي، فمنذ هوميروس وأبي العلاء المعري وبورخس ، الذي تماهى مع عماه الجسدي ليبحر في رحلة رؤيوية عبر كتابه (سبع ليال) . يبدأ بورخس بالحديث عن الكوميديا الإلهية بشفافية سلسة وثقافة موسوعية ، إذ راح يُنقب عن اصلها وفصلها وقراءات الآخرين لها وقد اكمل بهذا الليلة الأولى من الكتاب ، وجاء محمد خضير في حكايته الأولى ليصوغ من (الجحيم ، المطهر ، الفردوس) أطوارا للحكاية وينتمي الى عصر الفردوس ، اصل الحكاية ونبعها الاول حيث الحكاية برمتها هي حكاية الإنسان وادوار استحالتها (طفولة ، شباب ، شيخوخة وموت) والموت هو المقابل للحلم في الفردوس ، يقول(للحكاية ثلاثة عصور ، عصر النشأة ، عصر اكتشاف الحكاية ، عصر العودة الى الحكاية) والذي عاد فيه اكثر الكتاب الى النبع الأصلي . (حيث البشر يفقدون أنوفهم او يخترقون الجدار بسهولة او يتجاوزون جاذبية الأرض).

وبعد رحلة بعيدة يكتشف محمد خضير -كسابقيه الحالمين بالفراديس واليوتوبيات -،على خرائط تدله على ابعد نقطة في اقيانوس العقل البشري(ان حصول أي كاتب معاصر على هذا المجلد العجيب يضعه أمام سؤالين : أي دافع هائل خلف او أمام هذه الرحلة الطويلة؟ ولماذا هذا الانتزاع الرمزي والتحليق فوق الطبيعي على عالم البشر ؟) .

لقد وبخ الاسكندر المقدوني سقراط عندما نشر (كتاب الميتافيزيقيا) ، قائلا له: لقد كانت النخبة وحدها من تعلم بهذا الأمر ، فلماذا فضحته؟

أجاب أرسطو: كنت انسخ مخطوطاتي لوحدي . وكأنه يؤكد فهمه الخاص بان الكتب مثل التماثيل ، ولابد من الحوار لان الحوار يؤكد ضرورة البحث عن الجواب والجواب صياغة اخرى لأسئلة اخرى.

ومهما تبدلت الأجوبة على لسان الحكماء او على لسان الطيور والحيوانات وربما الصخور ، تبدأ الحكاية من اليقين لتنتقل الى فضاء الأسئلة.

يبدأ محمد خضير ماسكا خيوط الحكاية ، مارا بكشوفاته عن اصلها وروادها ، بعقل كبير وثقافة واضحة . وكما يستحضر بورخس الكتاب الذين كانوا أدوات منحوتة لجوهر تجربته ، ينتهي خضير بكشوفاته عن النبع الاول لفهمه للحكاية بالقول(ولكن عصرنا يبدو انه الحقبة الأخيرة من تطور البشرية التي لا نستطيع تخمين حدودها النهائية ، ولا شك في ان الحكاية التي سطعت كومضة تخيلية وحشية ، لا نهائية في رؤيا الوعي البدائي ، تطورت الى شكل نهائي مصطنع من أشكال ميكانيكية العقل المتطور، واستقرت في مملكتها الأخيرة الواسعة الأرجاء) وكما يذهب (ريلكه) : بان الحياة خبرة أولى للموت ، وكان الموت البيولوجي للأعضاء ليس فقدانا للأثر الجمالي للعقل البشري.

محمد خضير

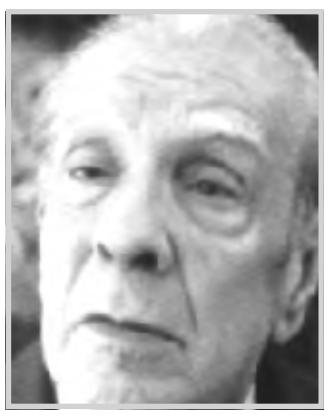
بورخس